تمنيت أن أكون مثله

أخذ الذهول جميع سكان أهل الحي، حتى اعتقدوا أن جسمه قد انشطر لقسمين والنصف الآخر قد مات لما رأوه من تصرفات هذا الفتى المحبوب من قبل الجميع، لكن هذا التصرف بالذات لم يرض أي شخص سوى والديه لأنهم لا يفهمون ما مغزاه، كان سعيد يذهب كل ليلة للمقبرة فيجلس هناك يفكر بأمور الدنيا وما بعدها ليزداد تمسكا بالحياة الدنيا ليعمل فيها كل خير يدخله جنان الآخرة.

بالرغم من المرض اللعين الذي أصاب سعيد إلا أنه لم يقهر أو يتضجر ويسب الحياة إنما تصرف تصرفا تخشع له عظمة الجبال وسعة البحار، أخذت البسمة تزين وجهه المشرق فهي لا تنصرف عنه أبدا، أخذ يجالس الكبار تارة والصغار تارة أخرى، يستمع لهذا مرة ولذاك مرة أخرى، إنه لا يمل أبدا من الحديث الخفي ولا ييأس من محادثة الصغار لأنه يجد فيهم معنى الحياة الحقيقي والتفاؤل المستمر بعيدا عن التشاؤم المنفر وفي ذلك مصلحته بإرضاء نفسه وإقناعه أن ما أصابه ابتلاء من الله تعالى.

لم يبال بما أصابه، لم يبال بإظفار المنية التي تحاول نهشه جسمه الغض وعوده الرقيق. لقد عمل جاهدا أن يبقى سره في بئر عميقة لا يسهل الوصول إليها ، وذلك ليرحم من ظاهر الشفقة التي سيمارسها الناس عليه عندما يعلمون بمرضه. لم يستول عليه المرض إلا في الآونة الأخيرة فالسنين العشر التي عاشها من عمره لم تكن إلا وهم، فعندما أراد الخروج للواقع بعيدا عن الأوهام افترسه المرض بمخالبه وعندما علم بطبيعة مرضه أصر أن يبقى سره طي الكتمان، فعاش الحادية عشر من عمره وأكمل إلى الرابعة عشر دون ان يكشف الناس مرضه الخطير.

وها قد عاد سعيد من المقبرة بعد زوال الفجر وبزوغ شمس أمل جديدة ليبدأ يومه ويعيشه بحب وإصرار، وبعدما صلى صلاة الشروق استعد للذهاب لمدرسته فقبل يدي أمه وهي تضع حقيبته على

ظهره وخرج وهو يبتسم لها داعية ان يوفقه الله ويحميه من حوادث الدهر.

لقد كان هم سعيد أن يتفق مع زميله فريد ويسيرا معا على درب واحد، فقد تحولت المنافسة بينهما إلى حقد وكره من وجهة نظر فريد أما سعيد فقد كان حريصا على أن تكون منافستهما شريفة للتوصل معا لأبرز النتائج، لكن كان هذا المفهوم عند فريد لا يساوي شيئا، لذلك عمل جاهدا لمضايقة سعيد قدر الإمكان ليصده عن طريق الوصول للمركز الأول.

وبالرغم من مداخلات المعلمين والآباء لحل سوء التفاهم بين الزميلين إلا أن فريدا ما يزال متشبثا برأيه، فقال ساخرا

- أتفشت الواسطة لهذا الحد، حتى تصل للطلبة والمدارس؟!

فامتلأ قلب سعيد حزنا وألما من تصرفات زميله وازداد حزنا وأسى عندما عيره فريد بمرضه المميت.

مشاعر الألم استولت على قلب سعيد، بينما قد استقرت مشاعر الشفقة والحزن على وجوه المعلمين والطلبة حينما علموا بحقيقة مرض الفتى الصغير. فقد انقشع الغمام عن سر الفتى وقد جاء ما كان يخشاه، فالشفقة بدأت تقترب من سعيد محاولة أن تنهش لحمه أكثر من مرضه. فقد اكتشف الآن مصدر الحركة التي سمعها خلف نافذة بيته، فلم يتوقع أبدا أن زميله سيتجسس عل حديثه مع أهله، فقال بحرقة

- سامحك الله

ثم خرج وترك حلمه ليجر أذياله وراءه، تاركا جميع الحضور في مدرسته متجمدين مكانهم فلم يتمكنوا من فهم الأمر. أربع سنوات ولم يبق للخامسة إلا أسبوع واحد وسعيد يكتم سره، وهو يعيش حياته بشكل طبيعي مثله مثل باقي الناس دون أن يظهر عليه أي بادرة مرض.

جلس في بيته ستة أيام دون أن يذهب للمدرسة وقلبه ممتلئ بالحسرة لتتلاشى قبل يوم ميلاده بيوم واحد عندما جاءه فريد بوردة حمراء قائلا له:

- كل عام وأنت بخير.

تعوضت حسرته فرحا، فنام نوما هنيئا قبل أن تشرق عليه شمس يوم ميلاده لتوقظه أمه لتفاجئه بهدية ميلاده، وعندما فتحت الباب وجدت العصافير تشدو على نافذة الغرفة بشجن، فهرعت أمه لدرجة أنها خشيت أن توقظه.

فلم الهرع والخوف؟!

يجب أن تعلم هذه المرأة أن ابنها قد ودع الحياة بجدارة، فقد أثبت للجميع كيف بإمكانهم التعايش مع المرض، فالحق يقال ان آخر خمس سنوات من عمره كانت أجمل سنوات يعيشها سعيد.

النهاية